

مآثر :تايناست ،باب المروج والترايبة

الإنقاذ من الانقراض

انجاز: محمادي هرنان ومحمد الخدادي

تقديم

على غرار مختلف البوادي المغربية، ارتبطت نشأة المراكز الإدارية/العسكرية في قبيلة البرانس بالحماية الفرنسية، في إطار التوغل داخل البلاد، وفرض السيطرة على السكان. وتعود جل المآثر الحالية إلى عشرينيات القرن العشرين، وكلها بنيت على طريقة معمارية فرنسية، بأسقف هرمية بالقرميد الأحمر، لتفادي تركز الثلوج ومياه المطر فوقها خلال الشتاء، وأرضية مبلطة بالزليج.

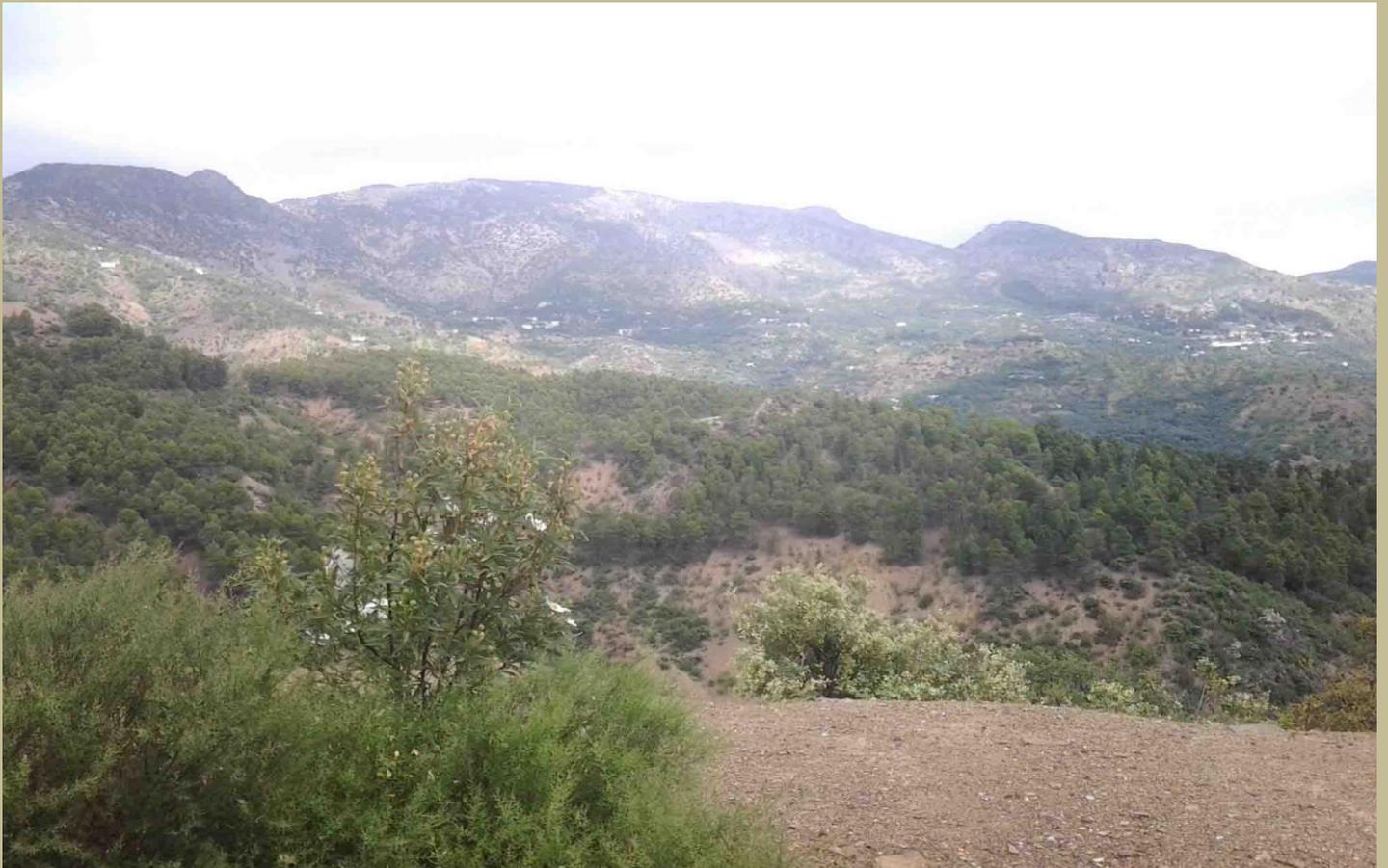
لم تفرض القوات الاستعمارية سيطرتها على القبيلة إلا بعد سنة 1926، بعد القضاء على ثورة الريف، بقيادة محمد عبد الكريم الخطابي، التي انضمت إليها قبيلة البرانس، ودفعت الثمن غاليا بالخسائر البشرية والاقتصادية.

فمن باب الانتقام من البرانس، فرضت السلطات الفرنسية على السكان نظام السخرة (la corvée، الكُرفي بالتعبير المحلي)، في شق الطرق وبناء القناطر والمراكز الإدارية والعسكرية، إذ كان على كل رب أسرة، أو أحد أبنائه، أداء أربعة أيام من العمل الشاق بشكل دوري وبدون مقابل، بالحفر وتكسير الحجارة وتسوية الأرض (سميت أيضا الرُبْعِيَام - أربع أيام). ومن كان عاجزا بسبب السن أو المرض، يساهم بدابته، بغل أو حمار، لمدة ستة أيام وكانت هذه الأعمال تتطلب أحيانا انتقال الأشخاص لمسافة تصل إلى 80 كلم كما هو حال قبيلة بني فُقوص التي ساهمت في بناء طريق تازة / تايناست مثلا.

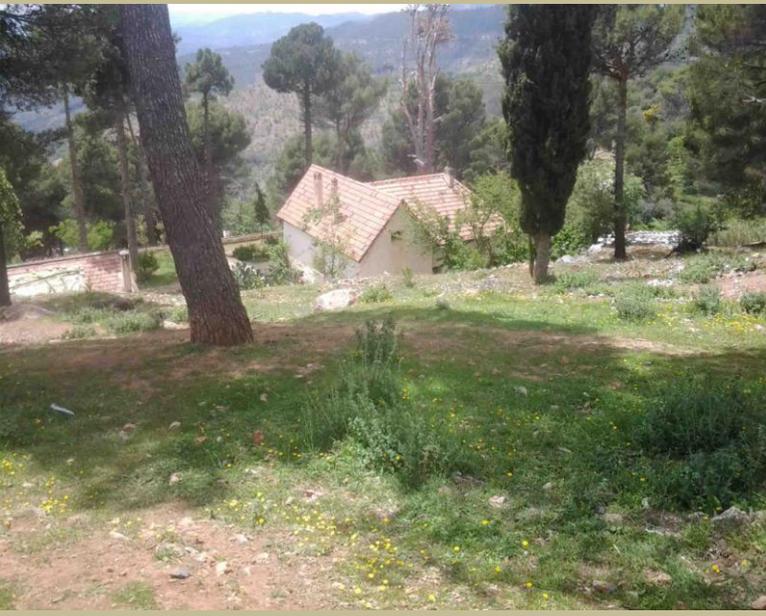
تايناست: جوهرة مهملة

أقيمت على سفح جبل تايناست، كتكنة عسكرية رئيسة، تتبعها التكنات العسكرية الأخرى، في باب المروج وكهف الغار، وحد مسيلة، وطهر السوق. تقع شمال تازة على بعد حوالي 90 كلم، وأنشئت من طرف الجيش الفرنسي كقاعدة متقدمة في قلب القبيلة، لضمان استكمال السيطرة عليها بعد سنة 1926، وحماية الحدود الشمالية لمنطقتها.

كانت تضم مقر الحاكم العسكري الفرنسي، وسكنى أفراد الحامية العسكرية، ومحكمة القائد، ومكتب القاضي والعدول، وسوق ينظم يوم الاثنين. وكل هذه المرافق أقيمت فوق مدرجات، بسبب صعوبة التضاريس والطبيعة الجبلية. بعد الاستقلال، أصبحت مركزا للقبيلة، بوجود القائد الممتاز والدرك، بالإضافة إلى مدرسة ومرافق أخرى، قبل أن تتحول بعض هذه المصالح في السنوات الأخيرة إلى حد مسيلة، وبقيت هناك مصلحة الحالة المدنية والبريد.. ومازال مركز تايناست يتميز بالماء العذب والبارد، وفواكه الجوز واللوز والتين والعنب والبرقوق.. في موقع طبيعي جميل، لكنه لم يعرف تطورا.







باب المروج: خطينة معمارية

يقع المركز على مرتفع بفرقة أولاد رحمون، جنوب ربع وربة، قرب منبع ماء عالي الصبيب (عين سوق). أقامت القوات الفرنسية النواة الأولى للموقع في بداية التوغل، قبل انضمام القبيلة إلى ثورة عبد الكريم الخطابي، بدوافع إستراتيجية، في إطار السيطرة على المنطقة، التي لا تبعد عن مدينة تازة إلا بحوالي 36 كلم، ويسهل تأمين المواصلات معها. فبمجرد دخول الجيش الفرنسي إلى المنطقة، عمل على إقامة ثكنة عسكرية مكونة من موقع للجيش والسلاح، بهدف مراقبة المنطقة ككل، وتأمين الاتصال مع مركز القيادة العسكرية بتازة، ومع المواقع الأخرى بالمنطقة.

حاصر أبناء المنطقة المركز سنة 1914، وقطعوا عنه الهاتف والماء، في سياق انتفاضة البرانس ضد توغل الاستعمار الفرنسي. بعد السيطرة على المنطقة نهائيا، في أواخر عشرينيات القرن الماضي، استقر في موقع باب المروج الحاكم العسكري والمراقب المدني، فضلا عن أفراد الحامية العسكرية، وما يرتبط بذلك من مرافق، كما نقل إلى المركز السوق الأسبوعي (الخميس) الذي كان يعقد بجامع الخمسين، في ربع الطائفة، على بعد 5 كلم إلى الجنوب.

إذا كان للحقبة الاستعمارية من وجه إيجابي في باب المروج، فهو ما خلفته هناك من معمار جميل في المركز الإداري، بأسقف بالقرميد الأحمر، وأرضيات مبلطة بالزليج، وساحة مزدانة بنباتات الزينة، وسقاية ماء على هيئة أسد واقف، والماء يجري من فمه، وبستان وحديقة بأشجار التفاح والجوز، كان يتولى صيانتها السجناء، وبرج للحراسة والمراقبة، بني بإحكام بصخور الشيست المائل إلى الزرقة. كما استفادت عين سوق من تجهيز وبناء جيد، مازال قائما إلى اليوم.

في أواخر الستينيات من القرن الماضي، نقل المركز الإداري إلى مرتفع معرض للرياح من الجهات الأربع، وبني بطريقة هجينة، مقارنة مع الصورة السابقة، وتعرض البرج للهدم، بعد أن ظل معلما للمركز، إذ كان يرى من مسافة بعيدة.

كان ذلك في عهد قائد من منطقة دكالة، وأشيع آنذاك أنه حمل القرميد والزليج لاستعماله في فيلا كان يبنها في مكان ما!

كما بنيت مدرسة ابتدائية، كانت مركزية لعدد كبير من الفروع التي بنيت في جهات مختلفة بالمنطقة (اترايبية، باب جنان، اللحاحة، بني يفتح، فج عياش...)، ثم أقيم مقر للجماعة القروية، ومكتب بريدي، ومركز صحي... وفي الأعوام الأخيرة، بنيت ثانوية إعدادية ودار للطلاب، ودار للولادة، كما أقيمت صيدلية.

خلف الفرنسيون أيضا بضع دكاكين ومقهى وحجرة دراسة، وخزانا لغاز الإنارة بمضخة يدوية، فضلا عن مقرات سكن المخازنية وإسطل خيولهم، ومساحة السوق، بما يتضمنه من مرافق، ومقبرة مسيحية لموتاهم، مسيجة ومحاطة بأشجار العرعار، وصهريجا لاستحمام الأغنام للوقاية من الطفيليات والأمراض.

كما بقي بعد الجلاء بغل قوي البنية (البغل دالبيرو)، كان يجر عربة لنقل الأغراض أثناء أعمال الصيانة.

أما الآن، فكل ما تبقى من الإنجازات الإيجابية لفترة الحماية، هي بضع شجرات توت و faux poivriers في السوق وحوله .









ثلاثاء اترابية: مجد غابر

أقامت السلطات الفرنسية هذا المركز في فرقة اترابية (قبيلة بني ففوص) على شريط ساحلي لمجرى مائي، وقرب مصدر ماء (عين جنان)،

وحوّلت إليه سوقاً أسبوعياً كان يقام يوم الثلاثاء بفرقة أولاد جرو، في سفح جبل هسكورة.
كما أقيم المركز قرب مقر سكن أحد الأعيان، الذي لعب دوراً في "التهدئة" بعد حركة عبد الكريم الخطابي، فحصل مقابل خدماته على منصب قائد على بني فصوص كلها (عزوز الهزاط).
خلفت الحماية في المركز بعض المرافق، أبرزها مستوصف، ومقر المحكمة، ومخزن كبير للحبوب والأسمدة، بالإضافة إلى بضعة دكاكين، ومجزرة، وسوق مسور، وحظيرة للدواب، ومطحنة للحبوب، في ملكية القايد عزوز.
بعد الاستقلال، بنيت أول مدرسة بحجرة واحدة وسكنى للمعلم، سنة 1961، وفي السنوات اللاحقة أضيفت مرافق أخرى (مكتب للبريد، مركز صحي، مركز إداري، مسجد، دكاكين)، بالإضافة إلى سوق برحبات متعددة (الحبوب، الخضر، الملابس والأحذية، الدجاج والبيض، النجارة، الحدادة، الحلاقة، القهوة...).
عرف المركز أوج ازدهاره في سبعينات القرن الماضي، بفضل السوق الأسبوعي يوم الثلاثاء، الذي كان يجلب المنتجات الفلاحية من أترابية وأولاد جرو والطايفة... لدرجة منافسة سبت بوقلال لدى مكناسة، إلا أنه تقهقر في الأعوام اللاحقة بسبب عوامل كثيرة، منها توالي سنوات الجفاف، والهجرة، وتحول نمط عيش السكان.
أغلب مآثر المركز والسوق يعود إلى المرحلة الاستعمارية، وتعكس مكانة المنطقة الغنية بثرواتها الفلاحية، وكذا العوامل السياسية، بالنظر إلى أهمية موقع القايد عزوز لدى الإدارة الفرنسية.



